النظرية الاجتماعية

يمكن في دراسة النظرية الاجتماعية الإشارة الى العناصر الآتية:

1. أصول النظرية الاجتماعية وبعض الجهود الرائدة في هذا المجال
2. نظرية الانعكاس والجدلية الاجتماعية أو سوسيولوجية الخطاب الأدبي.
3. نظرية الدراسات السوسيو-نصية وسوسيولوجية القراءة

1-يمكننا القول إن أصول النظرية الاجتماعية في فهم الأدب تعود الى الفكر اليوناني القديم وبخاصة مفهوم المحاكاة، وقد ظلت هذه النظرية مُسَيْطِرةً على الوضع وتهتم بالجانب الاجتماعي. كما تجدر الإشارة إلى المحاولة الرائدة للمفكر الإيطالي "جيامباتيستا فيكو Jiambattista Vico 1668-1744 "الذي تحدث عن علْمٍ يمكنه أن يدرس الطَّبيعة المشتركة للأمم، وهو صاحِبُ التعاقب الدوري للتّاريخ، وقد أثَّرَ على كثيرٍ ممَنْ جاءَ بعْدَه، كما أنَّ "مدام دي ستال Madame de Staël 1766-1817"قد تناولت علاقة الأدب مع المؤسسات الاجتماعية؛ مثل الدين والعادات والأخلاق، وكيف يؤثر التَّطور الحاصل في مجال من المجالات على الأدب والفكر، ومعلوم ان المدرسة الطبيعية في الأدب قد ربطت الأدب بالمجتمع كما أشرنا الى ذلك في حديثنا عن كل من هيبوليت أدولف تينHippolyte Adolphe Taine 1828-1893،وسانت بيف Charles Augustin Saint Beuve18041869- فضلا عن الإشارة إلى تولستوي (الكونت ليف نيكولا يافيتش) 1828-1910.

2-نظرية الانعكاس والجدلية الاجتماعية أو سوسيولوجية الخطاب الأدبي.

رأينا سابقا أن نظرية الانعكاس قد ربطت بين الأدب والمجتمع، وقد اتجه البحث لدى بعض الرُّواد الى توليد نظام يمثل بنية جديدة تلتحم فيها القيم

الجمالية بالقيم الاجتماعية، ولكن نظرية الانعكاس على العموم كانت قد اهتمت كثيرا بجمعنة الخطاب الأدبي، وبالاهتمام بالبِنْيَة الدَّالة كما عند غولدمان ورؤية العالم، وبعبارة أخرى فإن هذا الاتجاه اهتم بالمدلولات على حساب الدّوال الأمر الذي ستعمل السُّوسيو نصية على استدراكه.

3-نظرية الدراسات السُّوسيو-نصية وسوسيولوجية القراءة

يرى هذا التوجه أن الدَّوْر الذي ينبغي أن يقوم به الأدب تجاه الواقع الاجتماعي يتحدَّدُ انطلاقا من الشَّكْل، من مستوى الكتابة وليس من خلال المضامين والدلالات الاجتماعية، ولذلك فإن هذا الاتجاه ينقدُ سوسيولوجيا الأدب التي تنظر للنص وكأنه وثيقةٌ تعيينيةٌ تحيل على الأحداث. إن اللغة تحمل شُحنات معرفية وأيديولوجية، وعليه يَنْبَغِي معرفة التراكيب الجميلة في النّص من وجهتين متكاملتين: الجانب اليَوْمي في الاستعمال والجانب التخييلي الجديد، حيث إن الأديب ينطلقُ من لغةٍ موجودةٍ فيبعثُ منها لغةً جديدةً مُرَكَّبَةً هي لغةُ النّص الأدبي، فهناك شِفْرَتَانِ؛ شفرة اللغة المنظمة لوقائع العالم الخارجي، وشِفْرَةُ الأدب المنظِّمَةُ لوقائع العالم الدَّاخلي، وباندماج هذه في تلك، وتلك في هذه، يتشكَّلُ خطابٌ جديدٌ هو الخطاب الأدبي القائم بذاته. ويمكن الحديث في هذا الصدد على علمين بارزين هما: "ميخائيل باختين" و"بيير زيما" فيما يتعلق بالدراسات السوسيو نصية كمرحلة أولى.

أولا: ميخائيل باختين [1]

1- ولد ميخائيل باختين عام 1895 في أوريل ابنا لعائلة أرستقراطية ما لبثت أن أضحت معدمة، فقد كان والده كاتبا في مصرف. درس فقه اللغة في جامعة أوديسا ومن ثم في جامعة بتروغراد وتخرج عام 1918. عمل في سلك التعليم الابتدائي، وتزوج في 1921، وفي العام نفسه أصيب بالتهاب عظام حاد مزمن مما أدى إلى بتر رجله عام 1938. ألقي عليه القبض عام 1929 لأسباب مجهولة، لكنها قد تكون متعلقة بارتباطاته بالمسيحية الأرثوذوكسية، حكم عليه بالسجن خمس سنوات، ولظروفه الصحية تم

للناقد "ميخائيل باختينMikhaïl Bakhtine" دورٌ بارز في مجال البحوث السوسيونصية، حيث صاغَ نظريةً نقديةً تربط بين السِّمات الفنية الأدبية والعناصر الإيديولوجية في الرِّواية، فتُلْغِي القطيعةَ الموجودة بين ثنائية الشكل والمضمون.

لم يَغُضْ "باختين" الطَّرْفَ عن الأبعاد التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية المحيطة بالرِّواية، وإنما أقرَّ بأنها هي التي شكلت حوارية الرواية وحققت تعدد الأصوات وتباين الإيديولوجيات إلى حد تصارعها.

-1الحوارية والمناجاتية

درس ميخائيل باختين روايات دوتسويفسكي[1]، واعتبرها نموذجا في إيراد الإيديولوجيات داخل الرّواية، حيث قال: عن "دوستويفسكي" إنّه خالق الرواية المتعددة الأصوات Polyphone فلقد أوجد صنفاً روائياً جديداً بصورة جوهرية .و" تعدد الأصوات" مفهوم يشير إلى تعدد الإيديولوجيات في الرواية، يضاهيه مفهوم آخر عند باختين هو "الحواريةDialogisme "، إذ يخلق "رواية

التخفيف بالنفي إلى قازخستان. عمل حينها في أعمال كتابية لدى مؤسسات مختلفة، ثم حصل على وظيفة في كلية المعلمين، ثم استقر في كمر القريبة من موسكو ودرس بها اللغتين الروسية والألمانية، ثم مارس بعض النشاطات الأدبية. لما تدهورت صحته استقر في موسكو، ووافته المنية عام .1975

1- ولد ميخائيل باختين عام 1895 في أوريل ابنا لعائلة أرستقراطية ما لبثت أن أضحت معدمة، فقد كان والده كاتبا في مصرف. درس فقه اللغة في جامعة أوديسا ومن ثم في جامعة بتروغراد وتخرج عام 1918. عمل في سلك التعليم الابتدائي، وتزوج في 1921، وفي العام نفسه أصيب بالتهاب عظام حاد مزمن مما أدى إلى بتر رجله عام 1938. ألقي عليه القبض عام 1929 لأسباب مجهولة، لكنها قد تكون متعلقة بارتباطاته بالمسيحية الأرثوذوكسية، حكم عليه بالسجن خمس سنوات، ولظروفه الصحية تم التخفيف بالنفي إلى قازخستان. عمل حينها في أعمال كتابية لدى مؤسسات مختلفة، ثم حصل على وظيفة في كلية المعلمين، ثم استقر في كمر القريبة من موسكو ودرس بها اللغتين الروسية والألمانية، ثم مارس بعض النشاطات الأدبية. لما تدهورت صحته استقر في موسكو، ووافته المنية عام .1975

متعددة الأصوات" هي نفسها "الرواية الحوارية/ الديالوجية". أما النقيض من ذلك والذي ترفضه نظرية "باختين" هو مفهوم "أحادية الصوت"، الذي يشير إلى إيديولوجيا واحدة سائدة في الرّواية، ويماثله مفهوم "المناجاتية" Monologisme، حيث يخلق "رواية أحادية الصوت"، هي نفسها "الرواية المناجاتية/ المونولوجية."

إن الرواية الحوارية هي المثلى لدى "باختين" لكونها تمنح لكل الأفكار الحقَّ في التَّعبير والتَّمَثُّلِ في هذا الملفوظ، كما تُحَقِّقُ صراعًا إيديولوجيا عميقًا، وتعددًا للآراء، ورؤيةً أكثر شُمُولًا للواقع، مما يُكْسِبُها كمًّا من القُرّاء الذين يجدون بها أفكارَهم ورؤَاهم المختلفة. وتفعل الرواية ذلك عن طريق الطَّرْح الإيديولوجي الذي تُجَسِّدُه الشّخصيات بالتكافؤ، دون انحياز من الكاتب لواحدةٍ على حساب الأخرى، وإنما إعطاء كل الشخصيات القدر الواحد من الاهتمام، والمساواة بينها من حيث إبراز جوانبها الحسنة والسيئة، فيسعى الكاتب بذلك لتحقيق حيادٍ مطلقٍ، وتركِ القارئ حرًّا في الاختيار بين هذا الزخم الإيديولوجي .

استلهم باختين توجُّهَه هذا من تعددية الأصوات والألحان العديدة في الموسيقى، فمنها تَعَدَّدَت الأصوات واللّغات في الرّواية. واستلهمه أيضا من خلال إقامة علاقة بين العالم الروائي والكرنفال الذي ظهر في وسط الثقافة الشعبية للقرون الوسطى وعصر التنوير.

-2حياد الكاتب والراوي

إن الكاتب/ الروائي/ المؤلف حسب الدّارسين هو خالق العالم الرّوائي، يصنع الحدث والشخصية والزمن والمكان وفق اختياره، ويضعها في الرواية،

دون أن يَظْهَرَ هو ظهورا مباشِرًا في النّص، ويعتمد في الاختباء على الرّاوي؛ فالرَّاوي إذن مِنْ صُنْعِ الكاتب، ويعتبر أسلوبًا في تقديم البِنْيَة القصصية، وبذلك يكون مفهومًا مختلفا عن مفهوم الكاتب.

مادام باختين منتصرا لحوارية الرواية ورافضا لمناجاتيتها، فإنه قال بحياد كل من الكاتب والرّاوي في الرِّواية، وذلك من أجل ترك الأصوات المتناقضة تتصارعُ فيما بينها دون فوزٍ لإحدَاها، وبالتَّالي يكون مفهوما "صوت الكاتب" و"صوت الراوي" غير وَارِدَيْنِ في المبدأ الحواري.

3-تعدد اللغات

الرواية عند باختين جزءٌ من ثقافة المجتمع، والثقافةُ مثل الرِّواية مكونةٌ من خطاباتٍ تعيها الذَّاكِرَةُ الجماعية، وعلى كل واحدٍ في المجتمع أن يُحَدِّدَ موْقِعَه وموقفه من تلك الخطابات؛ وهذا ما يُفَسِّرُ حِوَارِية الثّقافة وحوارية الرواية القائمة على تعدد الملفوظات واللغات، فتعدد اللّغات من مُقَوِّمات المبدأ الحواري لدى باختين، إذ به تتصارع الإيديولوجيات في الرّواية.

صارت اللغة مع باختين المرآة الشفافة التي من خلالها نرى ما يعتمل داخل صدر الرواية من صراعات اجتماعية وإيديولوجية؛ قد تصطبغ هذه الخطابات المتعددة بأساليبَ خصها باختين بمصطلحات، كالتهجين Hybridisation مثلا، وهو في نظره أمر إيجابي للرّواية، ويعني «مزج لغتين اجتماعيتين داخل ملفوظ واحد، وهو أيضا التقاء وعيين لسانيين مفصولين بحقبة زمنية، وبفارق اجتماعي، أو بهما معا، داخل ساحة ذلك الملفوظ»، ويكون ذلك بطريقة قصدية، ويبرز التهجين أكثر- حسب توضيحات باختين-حين تتحدث الشخصية مع ذاتها وتسترجع حوارا آخر مما يعكس موقفها منه. وإذا كان

التهجين يجمع بين وعيين في ملفوظ واحد، أي من متكلم واحد، فإن الأسْلبة Stylisation [1] تجمع بين وعيين في ملفوظين مختلفين، أي من متكلمين. ومن

[1]- كلمة مُشتقَّة عن كلمة أسلوب Style ، ظهرت واستُخدِمت في مَجال فنّ التصميم Design والتصنيع للدَّلالة على عمليّة البحث عن مادّة وشكل للغَرَض المُصنَّع بحيث يُلبّي اتّجاهات الطِّراز السائد وطَلَبات السُّوق.

دخلت كلمة أسْلَبَة في الخِطاب النقديّ حديثًا واستُعمِلت للدَّلالة على طريقة في تَقديم موضوع ما بخُطوطه العريضة وبشكل مُرمَّز وتَجريديّ يَبتعِد عن التفاصيل، مع الاكتفاء ببعض الملامح المُكوِّنة لبُنية الموضوع (منظر طبيعيّ أو حكاية أو حادثة.

والأسْلَبة في الفنّ هي تَوجُّه نحو التجريد لأنّها لا تُظهر الموضوع كما يتَبدّى بالإدراك المُباشَر، وإنّما تَستخلِص منه الخُطوط الأساسيّة بحيث لا تُمثِّله هو، وإنّما المَضمون الذي يُستنتَج من ظاهره، فهي بذلك تُعطي تَصوُّرًا أقرب إلى ذاتيّة مُبدِعها من الأسلوب الذي يَعتمِد المُحاكاة التصويريّة التفصيليّة التي تَطمَح إلى نوع من المَوضوعيّة، وبالتالي فإنّ العمل المُؤَسْلَب يَتطلّب تفسيرًا خاصًّا من المُتلقّي. والأسْلَبة نَزْعة موجودة بشكل أو بآخَر في كُلّ الحَضارات وفي كُلّ الأزمنة (الحُروف الأبجديّة والأرقام والرُّموز هي نوع من الأسْلَبة) ويتَحكَّم في وُجودها شكل التعبير المُعتَمد في حضارة ما (المَنحوتات الخشبيّة في حَضارة الڤايكنغ)، أو المُعتقَدات السائدة (في الفنّ الإسلاميّ الأسْلَبة هي وَسيلة للابتِعاد عن تَصوير المَخلوقات الحيّة بشكل يُماثِل الصُّورة التي خُلِقت عليها) أو الخِيار الجَماليّ الواعي (المَدرسة التكعيبيّة في الفنّ الغربيّ في بداية القرن العشرين.

والأسْلَبة في المسرح هي ابتعاد عن المُحاكاة التصويريّة للواقع والاكتفاء بتقديم عَلامات تَدلّ على هذا الواقع أو تَرجِع إليه. لكنّه من الممكن القول إنّه حتّى في العرض المسرحيّ الذي يسعى إلى تصوير الواقع تصويرًا دقيقًا (انظر الواقعيّة والمسرح، الطبيعيّة والمسرح) هناك نوع من الأسْلبَة في طريقة هذا التصوير لوُجود الأعراف المسرحيّة التي تَتحكّم في العَرْض المسرحيّ. أي إنّ المسرح قد لجأ عبر تاريخه إلى الأسْلَبة بشكل أو بآخَر وأبرزها جُزئيًّا أو كُليًّا في العناصر التي تُكوِّنه، وأحيانًا كانت هذه الأسْلَبة وسيلته الوحيدة لتصوير الواقع (انظر المسرح الشرقيّ)

الأمثلة على ذلك مقطع من رواية(زمن بين الولادة والحلم) للمبدع المغربي أحمد المديني:" وقف الرجل، وأوقف، وبكى واستبكى، وكان موقفا جليلامهيبا. [1]

بيير فاليري زيما Pierre Valéry Zima

حاول بيير فاليري زيما النّاقد التشيكْوسلوفاكي من خلال كِتابه من أجْل سوسيولوجيا النّص الأدبي Pour une sociologie du texte littéraire أنْ يضع تصوُّرًا للعلاقة بين النص الأدبي باعتباره بنية لغوية تخييلية، وبين الواقع الاجتماعي الذي أنْتجه. جاء ضمن هذا الكِتاب فصلٌ بعنوان: من أجل نقد لسوسيولوجيا الرّواية، خصّصه لنقد الاتجاهات السّابقة التي عالجتْ سوسيولوجيا الرواية، وبناء تصوره لسوسيولوجيا الأدب.

رأى زيما أنّ ما يُطبّق على أنْواع الخِطابات غير الأدبية يختلِف عن الأدب، فيمكِن أن نتحدث عن مضمون تلك الخِطابات أو المقالات بصورة أُحادِية، ولكن الأمرَ مختلف في الأدب، إنّ التعامل مع النص بنظرة أُحادية Monosémique والكلمة مأخوذة من السيميم unité minimale= Sémème du discoursوالمونوسيميك هي الدلالة الأحادية المُرْتبِطة بسياق محدد.

النص الأدبي له بِنيات دلالية كثيرة، ولذلك فإن عِلْم الاجتماع، وهو يدْرس العناصر الخارجية للنّص يُهْمِلُ طبيعة النّص الأدبي، ويكتفي بالعوامل الخارجية (الكاتب-الطبعة – الجمهور) إنّ الخطاب القصصي التخييلي له بُعْد إيحائي، وهناك تعدد للمدلولات، وعدم تقيّد بين الدّال والمدلول، وهنا يعارض

[1]- جميل حمداوي : مفهوم التهجين وآلياته في الرواية، رواية شعلة ابن رشد لأحمد المخلوفي أنموذجا. ط1 2019 ص 61

"بيير زيما" مقولة البِنْية الدالة التي يقول بها "غولدمان" فالنص ليس له بنية دالة محددة، أو بنية عميقة، الحقيقة أنَّ النَّص بنيةٌ متعددة الدلالات Polysémique وهناك انزياحٌ بين الدَّوال والمدلولات

ينبغي الربط بين الدلالة الأيديولوجية للنص، وبين بنيته اللّسانية، ويتحدث عن العلاقة بين البنيات الخطابية، التي تُمثل الفئات الاجتماعية على المستوى اللساني، وبين فئات اجتماعية خاصة بعينها، وهو مالمْ يهتمْ به "باختين" هذه الوضعية هي مايسميها " زيما"بالوضعية السوسيو لسانية Situation sociolinguistique، الوضعية اللّسانية هي هذه اللغة، هذه التقنية الحاملة لأيديولوجية، ولكنها ليست خادمة فقط للجماعة، ويرى "زيما" أنه لمقاربة النص سوسيولوجيًّا، ينبغي ربطُه بالمرحلة التاريخية التي وُجِد بها، وما عرفته هذه المرحلة من أعمال وتقاليد فنية، الأمر الذي أهمله الشكلانيون الروس، ومن ثمة ظلوا عاجزين عن تفسير الأسباب الحقيقية لظهور أشكالٍ فنيةٍ جديدة، وعدم ظهورها في أوقات أخرى، ولكل جماعةٍ لغتُها ومُعْجمُها وما يُميّزها عن غيرها، وهنا نكون بصدد الحديث عن اللغة الاجتماعية بتعبير "زيما" وهو ما أشارَ له باختين فيما دعَاه بتَصَارُعِ اللُّغَات.